المحاضرة الثالثة تناسب الآيات والسور القرآنية

أولا- تعريف علم المناسبة

أ -لغة

المناسبة (التناسب) لغةً: يقول ابن فارس: (ت: 395هـ): "النون والسين والباء كلمة واحدة قياسها اتصال شيءٍ بشيء، ومنه النَّسب سُمِّي لاتصاله وللاتصال به"[1].

يقول الراغب الأصفهاني: (ت502هـ): "والنسب والنسبة: اشتراك من جهة أحد الأبوين، وذلك ضربان: نسب بالطول؛ كالاشتراك بين الآباء والأبناء، ونسب بالعرض؛ كالنسبة بين بني الإخوة وبني الأعمام؛ قال تعالى: {فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا} [الفرقان: 54][2].

يقول الزبيدي: (ت: 1205هـ): "ومن المجاز: المناسبة: المشاكلة، يقال: بين الشيئين مناسبة وتناسُب؛ أي: مشاكلة وتشاكُل، وكذا قولهم: لا نسبةَ بينهما، وبينهما نِسبة قريبة"[3].

يتَّضح مما سبق أن مادة (نسب) تجمع أكثر من معنى، فهي تأتي بمعنى الاتصال والتشابك، ومعنى الاشتراك في النَّسَب طولًا كالآباء والأبناء، أو عرضًا كالنَّسَب والقرابة بين الإخوة وبني الأعمام، ومعنى المشاكلة والمشابهة.

ب- المناسبة اصطلاحًا:

يقول الزركشي: (ت: 794هـ): "واعْلَمْ أن المناسبة علم شريف تحزر به العقول، ويُعرف به قدر القائل فيما يقول، والمناسبة في اللغة: المقاربة، وفلان يُناسب فلانًا؛ أي: يَقرُب منه، ويُشاكله، ومنه النسيب الذي هو القريب المتصل؛ كالأخوين وابن العم ونحوه، وإن كانا متناسبين بمعنًى رابط بينهما، وهو القرابة"[4].

يقول الدكتور أحمد يحيى: "وأما دلالته الاصطلاحية، فإن الناظر في المصادر البلاغية لا يكاد يظفر بتعريف محدد يتفق عليه البلاغيون، فمنهم من أشار إليه شارحًا مفهومه اللغوي عن طريق

---

[1]- أحمد بن فارس: مقاييس اللغة، ج 5، ص 422.

[2]- الراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن؛ ، ج 1، ص 801.

[3]- الزبيدي: تاج العروس، ج 4، ص 265.

[4]- الزركشي: البرهان في علوم القرآن؛ ، ج 1، ص 35.

الاستشهاد، ومنهم من أتى بالأمثلة دون أن يُحدد دلالته الاصطلاحية، إلا إشارات مقتضبة تضمَّنت دلالته الاصطلاحية التي لم تَختلف عن دلالته اللغوية كثيرًا"[1].

يقول القاضي أبو بكر بن العربي: (ت 543هـ):"هو ارتباط آي القرآن بعضها ببعض؛ حتى تكون كالكلمة الواحدة، مُتسقة المعاني، منتظمة المباني"[2].

يقول البقاعي: (ت: 885هـ): "علم مناسبات القرآن: علم تُعرف منه عِللُ ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة"[3].

وقد جاء تعريف النويري أكثر نضوجًا من تعريف غيره من البلاغيين والمشتغلين بالأدب، فقد أوضح تعريفه معالم مصطلح التناسب؛يقول: "هو ترتيب المعاني المتآخية التي تتلاءم ولا تتنافر"[4].

يقول الشيخ عبد الحميد الفراهي الهندي: (ت: 1349هـ) وقد أطلق على التناسب اسم النظام: "ومرادنا بالنظام أن تكون السورة وَحدة متكاملة، ثم تكون ذات مناسبة بالسورة السابقة واللاحقة...وعلى هذا الأصل، ترى القرآن كله كلامًا واحدًا ذا مناسبة وترتيب في أجزائه من الأول إلى الآخِر"[5].

يتَّضح من التعريفات السابقة لمصطلح المناسبة أو التناسب، أن هناك تقاربًا شديدًا بين علم المناسبة وعلم البلاغة؛ مما حدا بالبقاعي أن يجعله سرَّ البلاغة؛ إذ إن المناسبة كما هو معروف عند البلاغيين هي ترتيب المعاني المتآخية والمتشابهة والمتسقة، وعلم المناسبة – كما مرَّ– هو معرفة علل ترتيب الأجزاء (أجزاء الكلام).

ثانيا– المؤلفات التي تناولت علم المناسبة

تنوَّعت المؤلفات التي تناولت علم المناسبة، فمنها ما جاءت المناسبة فيها بابًا من أبوابها؛ مثل:

1– البرهان للزركشي، والإتقان للسيوطي؛ فقد جاءت المناسبة بابًا من أبواب هذين الكتابين.

ومنها ما أُلِّف خِصيصًا لها؛ مثل:

2– نظم الدرر في تناسب الآيات والسور؛ للبقاعي.(برهان الدين 809- 885هـ)

---

[1]– أحمد يحيى محمد: التناسب في سورة محمد: دراسة بلاغية؛ ، ص 4.

[2] – الزركشي: البرهان في علوم القرآن، ج1، ص 36.

[3]– البقاعي: نظم الدرر ج1، ص 6.

[4]– النويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج7، ص 107.

[5]– عبد الحميد الفراهي الهندي: دلائل النظام ص 75.

3- والبرهان في تناسب سور القرآن؛ لأبي جعفر بن الزبير الغرناطي. (627- 708هـ)

4- تناسق الدرر في تناسب السور؛ للسيوطي. (جلال الدين: 849- 911)

5- إمعان النظر في نظام الآي والسور؛ للدكتور محمد عناية الله سبحاني.

6- أثر المناسبة في توجيه المعنى في النص القرآني، رسالة دكتوراه للدكتور محمد عامر محمد.

7- المناسبات بين الآيات والسور: فوائدها وأنواعها وموقف العلماء منها؛ للدكتور سامي عطا حسن، جامعة آل البيت.

وهناك دراسات ورسائل علمية في المناسبة جاءت من باب التطبيق على سورة من القرآن أو عدة سور، ومن أمثلة ذلك:

1- أثر النظم في تناسب المعاني في سورة العنكبوت، رسالة ماجستير للباحثة مقبولة علي مسلم الحصيني، جامعة أم القرى بالسعودية، ٤٢٨هـ-٢٠٠٧م.

2- التناسب في سورة البقرة، رسالة ماجستير للباحث طارق مصطفى محمد حميدة ، جامعة القدس فلسطين، 1428هـ - 2007م.

3- المناسبة بين الفواصل القرآنية وآياتها:دراسة تطبيقية، رسالة ماجستير للباحث أحمد محمد عطية المنيراوي، الجامعة الإسلامية بغزة فلسطين 1431هـ -2010م.

ثالثا- القائلون بالتناسب والآخذون به

أ- قديما

1- أبو جعفر الطبري ت 310هـ في تفسيره (جامع البيان عن تأويل آي القرآن)، فقد تحدث عن المناسبة في مواطن كثيرة من تفسيره، وانتصر لها،وإن لم يُصرح بلفظ التناسب، وأغلب كلامه في المناسبة بين الآيات فحسب، أو بين الآيات وواقع الدعوة، وربما دمَج تفسير آيتين؛ ليُبرز العلاقةَ بينهما، والكلامَ المقدرَ المحذوف الذي تُرِك لدلالة ما ظهَر من الكلام عليه وَفْق تعبيره[1].

2- القاضي عبد القاهر الجرجاني ت 471 هـ: صاحب نظرية النظم الذي هو بحسب تعبيره:"تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب من بعض"[2]، وعنده أن المعاني تترتب في النفس أولاً وتَتبعها الألفاظ مُرتبة على حسب ترتيب المعاني.

---

[1] ينظر: الطبري: جامع البيان، ج 3، ص 458، ودلالة السياق؛ للدكتور عبد الوهاب أبو صفية، ص 86.

[2]- عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز؛ ، ص 4.

يقول عبد القاهر أيضًا: "وأنك إذا فرَغت من ترتيب المعاني في نفسك، لم تحتج إلى أن تستأنف فكرًا في ترتيب الألفاظ، بل تجدها تترتَّب لك بحكم أنها خَدَمٌ للمعاني، وتابعة لها، ولاحقة بها، وأن العلم بمواقع المعاني في النفس، علم بمواقع الألفاظ الدالة عليها في النطق"[1].

ولعل هذا يوضِّح أن النظم هو الإعجاز الحقيقي للقرآن عند عبد القاهر.

3- الزمخشري ت 538هـ:طبَّق الزمخشري في كشَّافه نظرية الجرجاني في النظم، وهو منذ البداية يؤكد في مقدمته: "الحمد لله الذي أنزل القرآن كلامًا مُؤلفًا منظمًا، ونزله بحسب المصالح مُنجمًا، وجعله بالتحميد مُفتتحًا، وبالاستعاذة مُختتمًا"[2].

4- أبو جعفر بن الزبير ت 708هـ في كتابَيه:" البرهان في تناسب سور القرآن"، و"مِلاك التأويل"، وقد كان هذا الرجل من أشد المنتصرين للمناسبة ووجودها في القرآن، وأما (ملاك التأويل)، فإنه قد خصَّصه لتفسير الآيات المتشابهات؛ حيث كان كثيرًا ما يذكر أن السبب هو الارتباط بالآية السابقة والسياق، كما يلفت إلى المناسبة مع موضوع السورة، وما يتكرَّر فيها من الألفاظ والصِّيَغ والمعاني التي تُميز كل سورة عما سواها"[3].

5- بدر الدين الزركشي ت 794هـ: وقد تحدث في كتابه البرهان في علوم القرآن عن التناسب باعتباره واحدًا من علوم القرآن، فعرَّفه وذكَر روَّاده، وأبرز المشتغلين به إلى زمانه، وردودهم على المعترضين، ثم أفاض في الحديث عن وجوه التناسب.

6- برهان الدين البقاعي ت 885هـ: وله التفسير المسمى: (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور)، دأب فيه أن يُورد في بداية كل سورة مقصودها من خلال اسمها الدال على هذا المقصود حسب رأيه، ولا يكتفي بذلك، وإنما يتحدث عن كل أوجه التناسب؛ داخل الآية، وبين الآيتين، وفيما بين مقاطع السورة، والتناسب بين ختام السورة وبدايتها فيما يُسميه: "رد المقطع على المطلع" بالنسبة للسورة، ثم بين السورة وجارتها، بل ويتحدث عن "رد المقطع على المطلع" بالنسبة للقرآن؛ أي: المناسبة بين السور التي في آخر المصحف ونظيراتها في أوله، باعتبار القرآن جميعِه وَحدةً واحدة[4].

---

[1]- المصدر السابق، ص 54.

[2]- الزمخشري: الكشاف، ج 1، ص 6.

[3]- طارق مصطفى محمد: التناسب في سورة البقرة، ص 20.

[4]- مشهور موسى: التناسب القرآني عند البقاعي، ص 57 وما بعدها.

7- السيوطي ت 911هـ:انتصر السيوطي لوجود المناسبة في القرآن، وقد ألَّف كتبًا كثيرة جاءت المناسبة جزءًا منها؛ مثل: (الإتقان)، و(معترك الأقران)، وقد نقل فيهما أغلب كلام الزركشي في (البرهان)، وألَّف أيضًا كُتبًا قصَرها على المناسبة؛ مثل:(تناسق الدرر في تناسب السور)، وقد ذكر السيوطي في مقدمته أن هذا الكتاب هو جزء من كتاب له كبير في موضوع التناسب، واسمه (أسرار التنزيل)، وله: (قطف الأزهار في كشف الأسرار)، و(مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع).

ب- حديثا

1- الأستاذ سيد قطب[1] (1906- 1966م): وذلك في كتابه: (التصوير الفني في القرآن)، وتفسيره: (في ظلال القرآن). فقد جعل لموضوع "التناسب" فصلاً خاصاً في (التصوير الفني)[(2)]، وتحدث في (الظلال) عن الوحدة الموضوعية في السورة، وشخصيتها المتميزة قائلاً: " إن كل سورة من سور القرآن ذات شخصية متفردة، وذات ملامح متميزة، وذات منهج خاص، وذات أسلوب معين، وذات مجال متخصص في علاج هذا الموضوع الواحد، وهذه القضية الكبيرة.

" إنها كلها تتجمع على الموضوع والغاية، ثم تأخذ بعد ذلك سماتها المستقلة، وطرائقها المتميزة، ومجالها المتخصص في علاج هذا الموضوع، وتحقيق هذه الغاية، إن الشأن في سور القرآن من هذه الوجهة، كالشأن في نماذج البشر التي جعلها الله متميزة، كلهم إنسان، وكلهم له خصائص الإنسانية، وكلهم له التكوين العضوي والوظيفي والإنساني، ولكنهم بعد ذلك نماذج منوعة أشد التنويع"[(3)].

2- **الدكتور محمود البستاني**[(4)]في كتابيه: (عمارة السورة القرآنية)، و(التفسير البنائي للقرآن الكريم)[(5)].

1- سيد قطب إبراهيم(1906-1966م): مصري المولد والاستشهاد، حفظ القرآن صغيراً وتخرج في كلية دار العلوم، أديب ومفكر، له: العدالة الاجتماعية في الإسلام، وهذا الدين، والمستقبل لهذا الدين، والنقد الأدبي أصوله ومناهجه، ومهمة الشاعر في الحياة، ومعالم في الطريق.[انظر: الأعلام،3/147-148، العظم، يوسف، رائد الفكر الإسلامي، الشهيد سيد قطب، دار القلم، دمشق، ط1، 1400هـ - 1980م].

2- سيد قطب، ، التصوير الفني في القرآن،(ص87- 142) ، دار الشروق، القاهرة/ بيروت، ط8، 1403هـ - 1983م.

(3) قطب، سيد، في ظلال القرآن،(1243/3)، دار الشروق، القاهرة وبيروت، ط26، 1418هـ - 1997م.

(4) محمود بن الحاج عبد الحسين البستاني، ولد في النجف عام 1366هـ وجمع بين الدراستين الحوزوية والأكاديمية، له:[الإسلام وعلم النفس، تاريخ الأدب العربي في ضوء المنهج الإسلامي، دراسات فنية في التعبير القرآني، دراسات فنية في القصص القرآني]. [انظر :www.ahlulbaitonline.com].

(5) مقدمة الكتاب الأول، وشطر الكتاب الثاني، على موقع الحوزة www.u-of-islam.net .

يقول الدكتور محمود البستاني بأن السورة هي هيكل أو بناء قد خُطط له بدقة وإتقان، وأن لهذا التخطيط فلسفته أو نكاته* الفكرية"[1].

ويرى البستاني أن الدراسات المتناثرة التي اهتمت بما أسماه عمارة السورة القرآنية، "لم تتطرق إلى سور القرآن جميعا، كما لم يتوفر بعضها على دراسة السورة بأكملها، فضلاً عن أن بعضها الثالث لم يتناول جميع الخطوط التي ترتبط بها شبكة السورة الكريمة بقدر ما اقتصرت على واحد أو أكثر من الخطوط المشار إليها، ولعل السر في ذلك بالنسبة إلى الدراسات القديمة، يعود إلى أن القدماء لم يتيسر لهم وعي ثقافي يسمح لهم بدراسة النص الأدبي من خلال (الوحدة العضوية) التي تربط بين أجزاء النص من جانب، وبينه وبين عناصره التي يتألف منها من جانب آخر؛ حيث تتطلب مثل هذه الدراسات ثقافة فنية ونفسية واجتماعية لم تتوافر إلا في العصور الحديثة."[2].

رابعا– نموذج تطبيقي

تناسب سور الكوثر مع ما قبلها (مع سورة الماعون)

إنا أعطيناك الكوثر فصلّ لربك وانحر إن شانئك هو الأبتر

1– وعد بالخير 2–توجيه إلى كريق الشكر 3– وعيد ببتر أعدائه

على العبد أن يقيد نعمة الله عليه بالشكر،ولذلك حض الله نبيه على الشكر. وقد جمع الله له في هذه السورة:

الطاعة بالقلب، فقال: لربك

الطاعة بالبدن، فقال: فصلِّ

الطاعة بما يملك، فقال: وانحر.

---

*––جمع مفرده نكتة، وهي الفكرة اللطيفة المؤثرة في النفس والمسألة العلمية الدقيقة يتوصل إليها بدقة وإمعان فكر. ينظر: المعجم الوسيط.

(1) البستاني، التفسير البنائي، المقدمة،عنwww.u–of–islam.net

(2) البستاني، عمارة السورة القرآنية، www.u–of–islam.net

مناسبة السورة مع ما قبلها وما بعدها[1]

هذه السورة هي كالمقابلة التي قبلها (سورة الماعون) لأن السابقة وصف الله تعالى فيها المنافق بأربعة أمور:البخل وترك الصلاة والرياء ومنع الزكاة. فذكر عز وجل في مقابلة البخل (إنا أعطيناك الموثر) أي الخير الكثير. وفي مقابلة ترك الصلاة (فَصَلِّ) أي دُمْ على الصلاة. وفي مقابلة الرياء (لربك) أي لرضاه لا للناس. وفي مقابلة منع الماعون (وانحر) وأراد به سبحانه التصدق بلحوم الأضاحي. ولأن سورة الكوثر هي خير عطاء للنبي صلى الله عليه وسلم فكأنه قيل: أنت يا خير الخلق غير ملتبس بشيء مما نهت عنه تلك المختتمة بمنع الماعون.

وجاءت خاتمة سورة الكوثر بقوله: "إن شانئك هو الأبتر" لتبين بأنه هناك بتر في الدنيا ووصل في الآخرة. فهناك مبتور وموصول. إذن فهما فريقان. والفريقان لا يمكن أبدا أن يتحد منهجهما في الحياة. لا في تصور العقيدة ولا في منهج التفكير ولا في المبادئ. ولذلك ساق الله عز وجل سورة –الكافرون– بعد هذه السورة، لتعبر عن المعنى الذي تعبر عنه حديثا في العرف الدبلوماسي بقطع العلاقات[2].

---

[1]– سامي محمد هشام حريز، نظرات من الإعجاز البلاغي في القرآن، نظريا وتطبيقيا، ماجستير أصول الدين، الجامعة الأردنية، 2006. ص114.

[2]– المرجع نفسه، ص114 وما بعدها.